سيدى رسول الله

للأستاذ شكرى فيصل

يا سيدى الرسول :

أترانى أملك منك النجوى ، وأستطيع إليك البث ، وأبلغ من ذلك السبيل ، وأنا غائب فى فيض من روعتك ، ذاهل فى فضاء من جلالك ، فإن فىّ دنيا من قدسيتك . . . أذكر دعوتك الكريمة . . . فأنساق فى جالها المشرق . . . منذ بدأتها فتى تأنف نفسه الجهل ، وتعاف بصيرته التقليد ، ويحس فى قراءته همسات من النور ، وقبسات من الحق . . . حتى اختارك الله داعياً لا يهاب ، ورسولاً لا يجبن ، وقائداً لا يضعف . . . واتسق فى ذلك التاريخ . . . يغمرنى ألقه الندىّ ، وتتولانى بهجته الطروب ؛ وتطالعنى فيه العزمات التى لم يفل منها عدد ، ولم تقو عليها عدد ، ولم يبلغ إليها هدوء أو خور . . .

إن الشاعر لتختلط علىّ . . . وإنّ الروعة لتملأ منى كل ثنايا النفس . . . وإنى لأحس الرعدة التى تكاد تصرفنى عن الحديث ، وتقعد بى عنه ، وتغمرنى بالنشوة الحالة ، فأصغو معها وأرق . . . وأخف معها وأدق . . . وأمتزج بها امتزاج الفناء . . . حتى لا أعى مكانى من الدنيا ، ولا موضعى من الغرفة ، ولا جوارى من الناس .

* * *

يا لجلال دعوتك ، ياسيدى الرسول . . . إنى لأحاول أن أحدق فى مشاهدها ، وأجول فى ثناياها ، وأقف عند تفاصيلها ، فإذا هذا الجلال المهيب يحول بينى وبين أن أكون من هذه المعجزة القدسية ، كما نكون من أحداث التاريخ ، ووقائع الأيام ، نقبل عليها بالدرس ، ونمضى بها فى التحليل ، ونفصل منها الأجزاء ، ونركب عليها النتائج ، ونخرج بعد وقد أدركنا منها كل ما خالطها من مؤثرات ، ومازجها من عوامل ، وما انكشفت عنه من أثر . . . وإذا هذا الكمال الرهيب يطغى على كيانى كله ، ليسكب عليه ألواناً من الروعة : أخاذة ساحرة . . . تهتز معها المشاعر اهتزازة الانفعال اللذيذ العميق . . .

ها هنا فى دعوتك . . . يا سيدى الرسول . . . عالم متسق من الحق البين ، والهدى الواضح ، ومن السنن القويم والخلق الكريم ، ومن العزمات الأبية والرجولة القوية ، ومن الخير المتدفق والفضل العميم . . . ومن الجمال الذى ينساب فى ذلك كله ، فيفيض عليه الرداء ، ويشيع فيه البهاء ، ويجعل منه الحادث الفذ .

* * *

أين تقف عيناى من دعوتك الكريمة يا سيدى رسول الله . . . إنهما لتتقلبان فى مدى واسع الفضاء ، فسيح الأرجاء ، بعيد الأطراف . . . وإنهما لتزوغان وتضلان . . . وإن إحداهما لتظلم الأخرى حين تحاول أن تقف بها عند حادث من الحادثات التى يملؤها ذكرك الرطب ، أو فى مرحلة من المراحل التى يغشاها خيالك الندىّ . . . وإنى لأحاول أن أستقر فى هذه المشاهد التى تتنازعنى . . . فما أسرع ما تنتابنى السنون . . . وتنثال من أمامى

وفى شكل (٩) تريعة من القاشانى [1] عليها رسم بهرام جور على الهجين يرتدف فتاته المغنية وهى من القرن السابع الهجرى (١٣ الميلادى) ومحفوظة بدار الآثار العربية برقم ١١٥٩٠

(شكل ٩)

قال الشاعر نظامى الكنجوى إن الملك بهرام جور خرج ذات يوم للصيد ، فشاء حظه العاثر — وهو ذلك الفارس البارع والصياد الماهر — أن يسقط فى بئر صادفته فى طريقه فيغرق فيها [2] ، ولم يعد إلى حبيبته فتنة ، لا ولا إلى زوجاته السبع ، فى القصر ذى السبع قباب « وكذا كانت الأيام وكذا تكون ، فلا يكن منك إليها سكون ولا ركون »

(حلوان) - محمد مصطفى

(١) أنظر ج . فييت : دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية ، ص ١٠٨ — ١٠٩ واللوحة ٢٢ و G. Wiet, L'exposition persane de 1931, p. 65 — 68, Pl. XXIII

(٢) قارن هنا بما جاء فى الشاهنامه ج ٢ ص ١٠٥ ، حيث يقول الفردوسى أن بهرام جور قضى نحبه فى قراشه

صور كلها كريم ... عزيز ... نادر ... وتنبعث فى ذهنى لوحات كلها قوى ... أبى ... جرىء ... فأحار أين أبدؤ منها ، وأين أنتهى فيها ، وكيف أستقر عندواحد منها ... وأتيه بينها ... كما يتيه الإنسان فى النغم الخالد : لا يستطيع أن يفصّل أجزاءه ، أو يميز بين مقاطعه ، أو يدرى سرّ الخلود فيه ... لأن الخلود قائم فى كل نغماته ، منساب فى كل ضرباته ...

* * *

فاغفرلى يا سيدى رسول الله ... هذه الجرأة : أن أرتفع ببصرى الكليل لأدرك البصيرة المتقدة ... أن أفتح عينىّ الضعيفتين لأصوّبهما إلى الشمس ... فلن أملك بعد إلا أن أغمضهما على الإكبار الذى يخالط الشغاف ، والإجلال الذى يستقر فى الحنايا ... والحب الذى يطأطىء منى ما لم يطأطأ لإنسان ...

وسأظل أسير فى ركابك يا سيدى الرسول ... خافض الرأس ... لأن مهابتك أجل من أن تمتد إليها عيون أو ترتفع إليها نواظر ... وسأعيش فى ظلالك الرحيبة تملؤنى فكرتك ، وتبهرنى دعوتك ، ويمضى بى هديك ... وسأهيم فى هذا الهدى ، وسأنطلق فى أرجاء هذه الدعوة ... نفساً سئمت كل ما يحيط بها من عوائق ، وما يحدها من علائق ، وما يربطها من قيود ... وروحاً مسّها أنوارك الزهر فألهبتها ، وصهرتها ، ونقّت جوهرها ... فعاشت بعد أملاً واسعاً ، ورجاء عريضاً ، وشوقاً محرقاً ...

وستستغفر يا سيدى الرسول ... لى ... ولهؤلاء الذين ضلوا من قبل ، وسيضلون من بعد ... هؤلاء الذين فتنتهم المادة ، واستهواهم العقل ، وزاغت بهم المناهج فى بيداء قاحلة مجدبة ... فعرضوا الذهب على النار كما يعرضون عليها الحديد والتراب ... فاستبان لهم الهدى ، وانكشف لهم الحق ، وظهرت لهم السبيل النيّرة فدخلوا جنتك المرعة ...

... إنها يا سيدى رسول الله إغفاءة الروح التى استيقظت معها المادة ، وصدأ النفس الذى فاقت عليه الغريزة ، وخبو الإشراق الذى سعى فى ظلمته العقل ، وكبر الحدس الذى نشط فى جموده الفهم ... وضلال الأهواء العاتية التى فترت معه الأحاسيس ... فإذا رؤى الجمال ، ومعانى الحق ، ومثل الخير لا تنبجس فى النفوس إشراقاً ، ولا تنبعث فى العقول إلهاماً ، ولا تلقى فى الروع إلقاء ... وإنما هى فى حاجة إلى المقدمات والحجج ، وفى ضرورة إلى البيان والشرح !!!

لشد ما أبغض أن ألقى جمال الزهرة فى تشريح أجزائها ومعرفة أعضائها وتمزيق أوراقها وبتر سوقها ، والهبوط بها من عرشها الزاهى ... ! إنى لأفضل أن أترك هذا الأسلوب لطائفة غيرى من الناس وأسأل لهم منه العافية ... فما يجب لنا أن ننشد جمال الزهرة فى غير عرشها الزاهى ، وتوردها الملهم ، وساقها الفائحة ، وانحناءتها الحبيّة ، وتفتحها بيد الله ... لا بيد الإنسان !

* * *

فلتعش سيرتك يا سيدى يا رسول الله ... انفعالاً حلواً ، وعاطفة لذيذة ... وهيجاناً يذكر بآيات الله ، ويقرب إليه ، ويدنى منه ... ولتبق هذه السيرة الكريمة فكرة ومثلاً ... فكرة سامية نبيلة ، ومثلاً عالياً كريماً ... ولتخفق نفوسنا من حول هذه الفكرة ، ولتحوم فى ثنايا هذا المثل كما يحوّم الحجيج حول البيت المقدس ... فى خشوع الإيمان القوى ، وروعة الجلال المهيب ، وإطراقة المستغرق الذاهل ... ولتنطلق ... وقد انعتقنا من هذه القيود ، وبرئنا من هذه الأغلال ، وتجردنا عن أوضار المادة وآثام العقل ... لنغتسل فى أضوائك الطهور ونتمسح بهديك الرشيد ، ونستقى أمواهك الأنقة ... ولنغب فى دنياك البريئة عبر الفضاء البعيد البعيد ... أرواحاً صافية صفاء النسيم ، نقية نقاء السماء ، خالصة خلوص الشعاع ... لنلتقى فى ظلال الروح الأعلى ...

* * *

سأعب من كوثرك الخالد — يا سيدى يا رسول الله — فأنا ظمآن حرّان ... وسأقطف من جناتك المترعة ، فأنا بهم شره ، ولقد طال بى الظمأ ، واشتد علىّ الجوع ، وضلّ بى الركب فى قافلة تظن الهداية وهى حيرى ، وتدعى الهناءة وهى شقية ، وتحسب الراحة وهى فى عذاب غليظ ، وتمضى على الشوك وينفر من جراحها الدم ، فلا تدرك لذع الشوك وألم الدم ... لأنها فقدت فى الحياة النفسية أحفل عناصرها بالإحساس وأشدها أثراً فى التفكير وأقربها خطى من الخير ... ولا تزال تزعم أنها فى سند